الباب الثاني

نوابغ من الغرب

الفصل الأول

رجال أدب

فيكتور هوجو

«الكاتب الشاعر الفرنسي»

- هأنذا أموت يا أوجست!!

- ما هذا يا فيكتور؟.. وما الذي تقول؟.. إنك بخير.. وسوف تبرأ من مرضك وتعيش طويلًا!

- إنني أموت.. وإذا عشت فإنني أعيش في أشخاصكم.

قال ذلك فيكتور هوجو، لصهره «أوجست فاكيري» وهو على فراش مرضه الأخير، وكان يرقد عليه منذ ثلاثة أيام، ويشعر باقتراب النهاية.. ثم التفت إلى صديقه الأديب «بول موريس» وكان يعوده، فقال له:

- لشد ما يتألم المرء - يا عزيزي - حينما يرى أنه يموت! ويرحل إلى الأبد.

فقال بول:

- ولكنك لا تموت.. فلا حاجة للألم والخوف!

- بل هو الموت يا صديقي!

وصمت هوجو لحظة، ثم قال باللغة الإسبانية:

- لست خائفًا الآن.. وليحضر على الرحب والسعة!

وصدرت في الثامن عشر من مايو عام 1885م، نشرة طبية شغلت الناس في كل مكان على حياة هذا الأديب، جاء فيها:

«أصيب فيكتور هوجو بالتهاب رئوي. والمعروف أنه كان يقاسي منذ مدة قرحة في القلب».

وكان الأديب الكبير يقاسي من فكرة الموت ضربًا من الفزع النفسي، وقد عرف عنه أنه كان يخلع على الجسد الميت إحساسات الإنسان الحي، ولكنه كان يؤمن بوجود الله، وخلود الروح التي كان يرى مظاهرها في كل شيء: في الطبيعة، وفي الأحلام، وفي قرقعة منضدة تتحرك، وفي نبضات قلب يخفق.. فقد كان يعتقد في عالم الأرواح، ويؤمن بالاتصال الروحي، وكان معنيًا بإجراء التجارب في تحضير الأرواح، ولما مات ابنه شارل كتب يقول:

- لو لم أكن أؤمن بالروح، لما استطعت أن أعيش بعد الآن ساعة واحدة!

***

وانقضى اليومان التاليان بين فترات من التحسن الطفيف كانت تعقبها فترات من التدهور والقلق.. وفي اليوم العشرين خط «هوجو» هذه العبارة:

- الحب هو الحياة.. والحياة هي العمل!

وفي اليوم التالي قال الشيخ المريض في فترة صحو لحفيدته الصغيرة التي كان يحبها حبًا شديدًا:

- وداعًا يا جان..!

وفي اليوم نفسه تلقت «مدام لوكروي» - أرملة ابنه شارل هوجو - الرسالة التالية من «الكاردينال جيبير» رئيس أساقفة باريس:

«سيدتي..

«إنني أشارك مسيو فيكتور هوجو مشاركة قلبية في آلامه، وأشاطر أسرته ما تكابده من قلق وانزعاج، وقد صليت من أجله وأقمت أمام المذبح المقدس قداسًا للمريض الشهير، وأرى من الواجب المحبب إلى نفسي أن أخفَّ إليه لنجدته، وأحمل له من التأسي والمواساة ما تشتد حاجة المرء إليه في هذه النازلة القاسية. على الرغم من أنني ما زلت ضعيفًا، وفي فترة نقاهة من مرض يشبه مرضه إلى حد كبير.

«وتفضلي يا سيدتي بقبول أخلص مشاعري مع احترامي الواجب».

فردت عليه السيدة «لو كروي» برسالة شكرت فيها عنايته واهتمامه، وأفضت إليه بأن الأسرة تريد التقيد بإرادة فيكتور هوجو نفسه الذي كتب في وصيته:

«إنني أوصي للفقراء بخمسين ألف فرنك

«وأريد أن تحملوني في نعشهم إلى المقبرة

«أرفض البركة والطقوس من كل الكنائس

«وأطلب صلاة من الناس جميعًا، ومن أجل الجميع

«وإني أؤمن بالله!».

***

وهكذا كان الأديب الشيخ في مرض الموت.. وهو الذي لم يمرض قط مرضًا خطيرًا في حياته المديدة، التي ذاق فيها فجيعة الموت في أولاده الذكور، وفي ابنته وزوجته «آديل فوشيه»، وفي حبيبته «جولييت درووية».. هذا عدا مآسي الحروب التي شاهدها، والثورات التي عاصرها، والأصدقاء الذين فقدهم، والشخصيات التي نسجها خياله في مسرحياته وقصصه.

وكان «هوجو» يعيش وقتئذ مقطب الجبين، كما كان يعيش منذ سنوات عديدة، وهو يتلقى في صمت ذلك التكريم الإجماعي للمجد الأدبي الخالد الذي كان يتمتع به، وكانت متعته الوحيدة في أواخر أيامه هي الجلوس إلى حفيدته الصغيرة «جان» وشقيقها «جورج» ابني ولده المتوفي «شارل هوجو»!

***

وفي صبيحة يوم الجمعة الثاني والعشرين من مايو، بدأ احتضار الشاعر العظيم، وكانت حشرجة الموت أول الأمر صوتًا مكتومًا خشنًا كصوت أمواج البحر على صخور الشاطئ.. ثم أخذ يضعف شيئًا فشيئًا حتى انتهى!

وكانت الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والعشرين من بعد الظهر حينما فارق الشيخ الحياة، تحت قصف الرعد وزمجرة عاصفة ثلجية كانت تجتاح باريس في تلك الساعة الواجفة الحزينة، وكان جمهور غفير يترقب في قلق شديد أنباء الأديب المحتضر تحت نوافذ بيته.

وانطفأ نور هذه القريحة الوقادة، وانطوت صفحات حياته الإنسانية النابغة.. وكان آخر ما نطق به بيتًا من الشعر جاء صحيح الوزن على الرغم من سكرة الموت، جاء في ترجمته: «هنا تنتهي معركة الليل والنهار».

ترى ما الذي كان يعينه «فيكتور هوجو» بهذا القول؟.. وما هو الليل؟.. وما النهار؟.

إننا لنجد الجواب على هذا كله فيما سبق أن كتبه منذ عشرة أعوام، عن المستقبل، بعد وفاة ابنه «فرانسوا فيكتور»، إذ كتب يقول:

«في يوم من الأيام، قد يكون قريبًا، سوف تدق الساعة من أجل الأب كما دقت من أجل الابن، ويبلغ يوم الكادح نهايته، وحينئذ يحين دوره، فيوضع بين أربعة ألواح من خشب، ويبدو كالنائم، ويصبح ذلك الشيء المجهول الذي يطلقون عليه: «الميت»، ثم يحملونه إلى الفتحة المظلمة حيث العتبة التي يستحيل التنبؤ بما وراءها.

«ولا يكاد ينهال التراب، وتكف المعاول، ويخيم السكون، حتى تغادر الروح رداءها البالي، هذا الجسد، وتخرج ضوءًا من أكداس الظلمات..».

***

وما كاد نبأ موت «فيكتور هوجو» يذاع في باريس حتى رفع مجلسا الشيوخ والنواب جلستيهما حدادًا على الراحل العظيم، وتقرر أن يدفن جثمانه في «البانثيون Le Panthéon»[1]، مقبرة العظماء، بعد عرضه تحت قوس النصر.

(1) استند البرلمان في هذا القرار الذي يخالف وصية الميت إلى ما نصت عليه الجمعية التأسيسية من أن البانثيون هو المدفن الذي خصصه الوطن لعظماء الرجال.

وظلت أمواج من الكتل البشرية تتدفق على قوس النصر لتلقي نظرة أخيرة على جثمان الأديب العظيم حتى ليلة 31 مايو عام 1885، ثم نقل هذا الجثمان من ميدان النجم إلى البانثيون في موكب رهيب لم يعرف له نظير منذ وفاة نابليون بونابرت، يحيط به مئات من الفرسان حملة المشاعل، ويحف بالنعش حرس شرف من اثنى عشر شاعرًا شابًا، يتبعهم طوفان بشري مؤلف من مليونين من البشر.

وانتشر هنا وهناك على النوافذ والحوانيت والشرفات والنواصي عدد لا يدركه الحصر من اللافتات التي تحمل كل واحدة منها بيتًا له من الشعر أو أبيات أو عبارة، كما قامت أخرى على نواصي الشوارع وواجهات المتاجر الكبرى تحمل أسماء رواياته ومسرحياته ودواوين شعره، ولم يحدث قط من قبل أن خرجت أمة عن بكرة أبيها تشيع شاعرًا من أبنائها إلى مقره الأخير.

إدجار ألن بو

«الأديب الروائي الأمريكي»

- يا إلهي.. أنقذ روحي من هذا العذاب!!

وكانت ممرضتان في مستشفى «واشنطن كول» تمسكان بإدجار ألن بو في هذه اللحظات الحرجة، وهو يجود بأنفاسه على سرير الموت، ويردد هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي كلماتها المؤثرة على مأساة حياته المؤلمة. بما عانى فيها من متاعب العيش، وبلاء الفقر، ونوازل الأمراض والأحزان.

وكان على سرير المرض يهذي هذيان المجنون، وقد أصيب باضطراب نفسي، جعله في آخر أيامه لا يعي ما يفعل أو يقول، وقد أثرت الكوارث التي نزلت به في جسمه، فأصابته بالضعف والهزال، وفي عقله فأضاعت منه سلامة التفكير والاتزان، فكان يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعه الناس، وأصبح شارد الذهن، ذاهلًا عن نفسه وعما حوله، وكان في بعض حالاته يفيق من ذهوله، ويرجع إلى اتزانه، فيكتب أو يقرأ، أو يردد بعض عبارات من قصصه. ثم يعود إلى مرضه العقلي، أو يعود المرض

إليه، فيرى أشباحًا مخيفة تطارده، أو يرى شبح زوجته الحبيبة التي ماتت بمرض الدرن في عنفوان الشباب، فكان لمصابها أشد وقع في قلبه وجوارحه، وكان موتها أول كارثة نزلت به، وساقت إليه من الكوارث ما أدت به إلى هذه النهاية المؤلمة.

فقد كانت زوجته الشابة «فرجينيا» تغني - ذات مساء - على قيثارتها بصوتها العذب الحنون لزوجها «إدجار» وجماعة من أصدقائه وفجأة، مدَّت يدها إلى عنقها. فقد شعرت بألم جعلها تمسك عن العزف وتسعل سعالًا شديدًا، ثم انبثق الدم من بين شفتيها، وتناثر على ثوبها الأبيض الأنيق!

إنها العلامة المشئومة لمرض الدرن الخبيث الذي مات بسببه كثير من الأعزاء على نفس «إدجار»، ومن بينهم والدته.

وأظلمت الحياة في عيني «إدجار» حين نزل بزوجته هذا الداء، وكتب إلى أحد أصدقائه يقول: «إنك لن تستطيع أن تتصور حالة الاحتضار التي أعيش فيها، منذ أن علمت بهذا الخبر المشئوم.. ذلك أنك تعلم أنني أحبها إلى حد العبادة».

وكان قد اقترن «بفرجينيا» ابنة عمته، ولما تبلغ من العمر الرابعة عشرة، وكان هو وقتئذ في الرابعة والعشرين، شابًا جذابًا مرهف الشعور، وكانت «فرجينيا» معجبة به أشد الإعجاب.

واندفع «إدجار» يغرق أحزانه في الخمر.. وصار يهيم وحده ليالي طويلة في طرقات «فيلادلفيا» حزينًا يائسًا كئيبًا، وزاد من يأسه وكآبته ما كان يعانيه من قلة العمل وضيق العيش. وكان كلما تقدم إلى صحيفة وجد الأبواب موصدة في وجهه. وخيَّم البؤس الأسود على رأس الأديب الشاب حتى أصبح لا يملك ما يستطيع به أن يبتاع طعامًا أو فحمًا يرد به غائلة البرد عن «فيرجينيا» العزيزة التي ألح عليها السعال وهي ملقاة إلى جواره على سرير من القش.

وكان أثناء ذلك يكتب قصة كنز غريب: قصة «الجعران الذهبي» وينظم قصيدة «الغراب» الخالدة، ذلك الغراب العجيب الذي ظل يطارده منذ الطفولة والذي يرمز في آن واحد إلى تشاؤمه من الموت والجنون!

وحاول «إدجار» عبثًا أن يبيع «قصيدة الغراب» إلى إحدى الصحف أو المجلات، ورآه أحد أصدقائه الصحفيين ذات يوم يخرج من مكتب رئيس تحرير صحيفة

«جراهامز» وعلامات اليأس والمرارة بادية على وجهه، فأثرّ في نفسه منظر الشاعر البائس الحزين.. فقام الصديق بدعوة محرري الصحيفة وعمالها، وقال «لإدجار»: «هيا أيها الصديق.. أسمعنا قصيدتك».

وما كاد «إدجار» ينتهي من تلاوة قصيدته حتى خلع أحد الحاضرين قبعته وطاف بها على الموجودين فجمع له بعض المال، وفي تلك الليلة عاد «إدجار» إلى زوجته وفي جيبه خمسة عشر دولارًا!

***

ولقد اضطر «إدجار» إلى ترك «فيلادلفيا» وتوجه إلى «نيويورك» حيث نجح في الحصول على عمل في صحيفة «برودواي»، غير أن نقل «فرجينيا» وهي في هذه الحالة من الضعف المتزايد أثر في الأديب الكبير، وجعله يشعر بصدمة عصبية تامة.. كان يبكي طيلة الرحلة دون أن يرفع يداه عن يدي زوجته التي لم تعرف منه سوى حبه الزوجي، وحنانه الأخوي.

وكان كل ما تخشاه «فرجينيا» هي أن تترك زوجها المسكين الذي تحبه في غمرة عالم قاس شديد، فقد كانت تعلم تمامًا مدى الخطر الذي كان يتهدده بسبب الخمر التي كان الشاعر يحاول أن يدفن فيها أحزانه وآلامه.

قالت له «فرجينيا» في حنان عميق: «حينما أموت سأصبح ملاكك الحارس يا «إدجار»، وكلما ترديت في هاوية ارفع ذراعيك فوق رأسك، فسوف أكون هنا، إلى جوارك لأخف إلى نجدتك وآخذ بيدك».

وكان «إدجار» كلما سمع من زوجته ذلك الحنان الأليم، ازداد حزنه، وأكثر من شرب الخمر، وتعاطى «الأفيون»، وكان يعود إلى بيته في المساء مترنحًا شارد الذهن يتمتم بعبارات غامضة لا معنى لها. وكانت حماته «مسز كليم» تقضي الليل متنقلة بين فراشي مريضين: «فرجينيا» التي تحتضر، وزوجها الذي كان ينتحر في بطء.

وقد ازدادت صحة الأديب ضعفًا، وأصبحت يداه تصابان بالرعشة أحيانًا إلى حد أنه كان لا يستطيع الكتابة، فصار يملي مقالاته على «مسز كليم» التي استطاعت أخيرًا

أن تقلد خطه، لأن رئيس التحرير كان يصر على أن يقرأ خط «إدجار» نفسه ليتحقق من أن «بو» في حالة طبيعية وهو يكتب!

❊❊❊

وفي خريف عام 1846م، ذهب «إدجار» وزوجته إلى قرية «فردهام» على مسيرة ثلاثين كيلومترًا من «نيويورك» على أمل أن تتحسن صحة زوجته، وكان قد أصبح مرة أخرى بلا عمل، وأصبحت «فرجينيا» في حالة تنذر بأن الحياة لن تمتد بها أكثر من بضعة أسابيع كانت تقضيها على سرير من القش.. وأثرت حالة الأديب النابغ في بعض أصدقائه والمعجبين به، فأنبأوا رئيس تحرير جريدة «نيويورك مورننج إكسبريس» أن الروائي الشاعر يعيش عيشة الضنك والبؤس.. فنظموا اكتتابًا جمعوا له عن طريقه ستين دولارًا.

وانطلق «إدجار» بكنزه الصغير ليبتاع لزوجته الدواء، ولكن الأوان قد فات، وذهب إليها يحمل الدواء.. فوجدها في النزع الأخير.. وانتهت حياة الزوجة المسكينة في الثلاثين من يناير عام 1847، وإحدى يديها بين راحتي «إدجار» والأخرى بين يدي «مسز كليم».

وكان آخر ما نطقت به: «يا أماه.. اقسمي لي على ألا تتركي إدجار وحده..!».

ثم تمتمت بكلمة أخيرة من قصيدة الغراب فقالت: Never more تلك الكلمة التي تتردد في حزن عميق في كل بيت من أبيات قصيدة الشاعر الخالدة!.. وكانت «فرجينيا» وقتئذ في الرابعة والعشرين، وهي نفس السن التي ماتت فيه والدة «إدجار»، وبنفس المرض!

❊❊❊

وفي ذلك الصباح الذي دفنت فيه «فرجينيا» لازم «إدجار ألن بو» الفراش بدوره مصابًا بحمى خطيرة أقعدته عن العمل والسعي لرزقه.

وأخذت الهواجس والرؤى العجيبة تساور «إدجار»، ثم خفت عنه وطأة الحمى، وفي هذه الأثناء كتب قصته: «أريكا» وهي آخر قصة له، يقص فيها تكوينًا غريبًا

للكون وطبيعة العالم! وظلت شياطينه تطارده دون هوادة، حتى حاول الانتحار ذات مساء، ولكنهم تمكنوا من إنقاذه في اللحظات الأخيرة.

وفي يونيو من عام 1849 سافر «إدجار» إلى «فيلادلفيا» حيث كان عليه أن يقرأ قصته الأخيرة على نخبة مختارة، غير أن انتظار الحاضرين له قد طال دون جدوى، أما هو، فقد توجه فور نزوله من الباخرة إلى صديقه الرسام «جون سارتين» وقال له: «هناك أناس يتآمرون على قتلي.. إن ثلاثة من الرجال الملثمين يطاردونني من نيويورك، وأرجو أن تخبئني عندك في مخبأ أمين».

❊❊❊

وطلب «إدجار» من صديقه الرسام أن يعيره موسى ليحلق بها شاربه حتى لا يتعرف عليه مطاردوه «الخياليون»، ولكن «سارتين» خشى أن يقطع «إدجار» رقبته فادعى أنه لا يمتلك موسى، واكتفى بأن قص له شاربه بنفسه بالمقص، فعاد الصفاء قليلًا إلى نفس «إدجار»، واستقل القطار في رفقة صديقه الرسام عائدًا إلى «نيويورك» دون أن يلقي محاضرته المنتظرة!

واشتد المرض النفسي «بإدجار» فأصبح لا يعيش إلا في عالم الأشباح، ويقي فترات طويلة مستغرقًا في شرود غريب!

وفي نهاية سبتمبر من عام 1849، كان عليه أن يذهب مرة أخرى ليلقي محاضرته في «فيلادلفيا»، ولكن طال انتظارهم له في هذه المرة أيضًا دون جدوى!

واختفى خمسة أيام كاملة حتى لم يدر أحد أين يوجد «إدجار ألن بو» أكبر أدباء أمريكا، وأخيرًا عثر عليه أحد رجال الشرطة ملقى على أحد الأرصفة في مدينة «بالتيمور» ولحيته لم تحلق منذ عدة أيام - وكان شارد الذهن ذاهلًا بسبب الرؤى المخيفة، حتى اضطر أصدقاؤه إلى نقله في الحال إلى مستشفى «واشنطن كول» وهو في أشد حالات اضطرابه النفسي ومرضه العقلي.

وكان «إدجار» يردد في هذيانه نصًا من خاتمة قصته «آرثر جوردن بيم» يقول فيه: «ولكن.. في طريقنا، ظهر فجأة شبح إنسان ملثم، حجمه أكبر بكثير من حجم أي ساكن لهذه الأرض، وكان لون بشرته أبيض ناصعًا كالثلج..».

ولم يكد ينقضي على دخول «إدجار» المستشفى يوم واحد حتى فاضت روحه في تمام الساعة الخامسة من صبيحة يوم 7 أكتوبر عام 1849 وهو يردد في ألم: «يا إلهي.. أنقذ روحي من هذا العذاب..».

وهكذا انتزع الموت «إدجار ألن بو» من بين أشباحه وهواجسه وهو وحيد على سرير حقير في المستشفى، ولم يعش أكثر من عامين بعد رحيل زوجته مصدر وحيه وإلهامه، وبموته انقشعت اللعنة المشئومة التي ظلت تلاحق أسرة «بو» والتي نزلت على رأس «إدجار».

وبعد موته بيومين اثنين، جاءه خطاب من فرنسا فتحته «مسز كليم» كان مرسله يلتمس في تواضع «الأذن بأن تترجم إلى الفرنسية إحدى القصص التي كتبتها أعظم شخصية روائية عرفتها أمريكا».

وكانت هذه الرسالة، تحمل توقيع الشاعر الكبير «شارل بودلير»!

ألكسندر بوشكين

«الشاعر الروائي الروسي»

وسقط بوشكين طريحًا على الأرض ينزف الدم من جنبه، وينساب على الثلج، حتى كوَّن بركة دموية حمراء.. وقد أغمى عليه، وغاصت فوهة مسدسه بجواره بين الثلوج، فظن من حوله أنه فارق الحياة، ولكنه ما لبث أن أفاق من إغمائه، وصاح يقول لصديقه «دانزاس» الذي أسرع إليه، وقد أذهلته المفاجأة:

- انتظر، فلا يزال في وسعي أن أصوب طلقتي إليه!

فأعطاه دانزاس مسدسًا آخر أطلقه الشاعر على غريمه «داتنس» وقال له وهو يراه يسقط بدوره:

- هل قتلته؟

فأجابه دانزاس:

- كلا.. ولكنك جرحته في صدره وذراعه!

فقال بوشكين:

- هذا شيء غريب، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته في نفسي السرور. ولكنني

أشعر الآن بأن ذلك لم يتحقق. وعلى أية حال، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء.

وسكت بوشكين، إذ كانت إصابته شديدة بالغة، والدم ينزف من جرحه بغزارة.. ثم نقل في رفق على زحافة إلى بيته، حيث كانت زوجته «ناتاليا» تطرز رداء لها في غرفة الجلوس. فما كادت تراه محمولاً مضرجًا بدمائه حتى سقطت فاقدة الوعي..!

وكان بوشكين قد التقى بالآنسة «ناتاليا جونتشاروف» لأول مرة عام 1829 في حفل راقص، كان القيصر «نيقولا الأول» من بين حاضريه. وما كادت عينا الشاعر تقعان عليها وهي واقفة تبتسم عن يمين القيصر حتى تعلق بها قلبه وأدرك على الفور أنها شريكة حياته.. وقبل أن تنتهي السهرة كان قد اتخذ لنفسه قرارًا في الأمر: ففي اليوم التالي، سيتقدم رسميًا ليطلب يد الآنسة «ناتاليا جونتشاروف»، فماذا تهم حريته وفيم تعنيه حياة المغامرة إذا ما قورنت بالاستحواذ على هذا الجمال الكامل، هذه الفتاة التي لا نظير لها والتي فتنت القيصر نفسه؟

***

وقد كان بوشكين وقتئذ في الثلاثين، وكانت هي في السادسة عشرة، فتاة رقيقة كالزهرة الباسمة، ذات جمال رائع، لها ولع بحياة المجتمع وتعشق الحفلات الراقصة حيث كانت تأسر بجمالها أنظار جميع الرجال!

ولم يكن يخالج السيدة «جونتشاروف» - والدة ناتاليا - شك في أن ابنتها سوف تظفر عاجلًا بزوج ثري نبيل، ولم تكن الفتاة من جانبها تقرأ الشعر، ولم تكن قد أعجبت بعد بروائع بوشكين التي ظهرت متتابعة خلال عشر سنوات، من «روسلان ولودميلا» إلى «بوريس جودونوف» والتي كانت تدر على الأديب الشاب دخلًا لا بأس به، هذا فضلًا عن أن القيصر نفسه - على ما يبدو - كان يشمله برعايته.

وفي اليوم التالي.. ذهب «الكونت تولستوي» إلى بيت الأم، نائبًا عن «ألكسندر سيرجيفتش بوشكين» ليطلب له يد الآنسة «ناتاليا جونتشاروف»، وكانت الأم تؤثر أن يكون زوج ابنتها من ذوي الجاه والثراء، كأن يكون وزيرًا، أو حاكمًا، أو مستشارًا على الأقل. ولهذا، لم يلق هذا الطلب ترحيبًا لديها لأول مرة ولزمت جانب الحذر والتردد، ولكنها مع ذلك لم ترفض بوشكين صراحة، وإنما أرادت أن تمسك العصا من منتصفها

وآثرت التريث، ومن ثم جاء ردها لا منطويًا على الرفض ولا على القبول الصريح، وقالت للكونت: «أن ناتاليا صغيرة للغاية.. ولهذا فعلينا أن ننتظر، وأن نتذرع بالصبر».

وجاءتها في اليوم التالي رسالة من الشاعر الشاب يقول فيها:

«أرى لزامًا على أن أكتب إليك الآن وأنا جاث على ركبتي، ودموع الشكر والاعتراف بالجميل تفيض من عيني، بعد أن جاءني الكونت تولستوي بالجواب.. إن جوابك يا سيدتي ليس رفضًا وإنما أنت تسمحين لي بالأمل». وقد علمت منه الأم أنه سافر من موسكو في الليلة السابقة إلى القوقاز.

وبعد فترة تردد دامت أكثر من عام، وافقت السيدة «جونتشاروف» أخيرًا على خطبة ابنتها إلى «ألكسندر بوشكين».

***

ولأول مرة في حياة بوشكين الحافلة بالمحن والصعاب، ذاق الشاب طعم الحياة الزوجية بالرغم مما كان يعانيه من ضائقة مالية اضطرته إلى رهن حصته من أملاك والده في «بولدينه» حتى يستطيع تغطية نفقات حفل الزواج وتهيئة مسكنه الجديد. وكان إحساسه بالسعادة عميقًا إلى حد أنه كتب إلى صديقه الشاعر «بليتنيف» يقول: «إنني سعيد في حياتي الجديدة سعادة لا توصف، وأمنيتي الوحيدة هي ألا يتغير شيء في نظام معيشتي بالبيت، إذ أنني لا أتوقع خيرًا مما أنا عليه، ولست أبالغ إذا قلت لك إنني أحس كأنني ولدت من جديد».

وأقام بوشكين مع زوجته بادئ الأمر في موسكو، إلا أن حماته كانت سيدة سليطة اللسان، كثيرة المطالب والرغبات، تثير المشاكل، وتخلق الخلاف من لا شيء، وكان يطيب لها أن تحرض ابنتها «ناتاليا» على زوجها الشاعر، وأن توجِّه إليه سهام نقدها، وتكيل له الذم والعبارات الجارحة، فكان طبيعيًا أن يضيق صدر بوشكين بهذا التدخل الشاذ في حياته الشخصية، وكتب إلى صديقه «بليتنيف» يقول: «إنني أعيش هنا كما تريد حماتي، لا كما أريد أنا!».. ثم فرَّ بزوجته إلى بطرسبرج وأقام مؤقتًا بالقرية القيصرية.

ولشد ما كان بوشكين يتوق وقتئذ إلى حياة هادئة حافلة بالعمل الفكري والتأليف المفيد، ولكن قدر له أن يقاسي المتاعب والآلام على الدوام. فلما انتقل من موسكو إلى بطرسبرج أحاطه القيصر بطوق جديد من عنايته، فألحقه بمنصب بوزارة

الخارجية، وأظهر له كثيرًا من ألوان التودد والمجاملة. والواقع أن هذا التلطف الذي أبداه القيصر نحو الشاعر الشاب لم يكن موجهًا إلى شخصه مباشرة، فقد كان نيقولا الأول لا يرتاح في قرارة نفسه إلى نزعات بوشكين التحررية، وإنما كان الباعث عليه اهتمام القيصر بزوجة الشاعر الحسناء «ناتاليا جونتشاروف».

وفي عام 1834، منح القيصر «بوشكين» لقب ضابط في البلاط، وذلك حتى يضمن تردد «ناتاليا» الجميلة على حفلات البلاط الراقصة، وحتى يحكم رقابته على الشاعر الأديب في كل وقت.

وقد جرت العادة في البلاط الروسي وقتئذ أن يمنح القيصر طائفة من أبناء النبلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة، والثانية والعشرين لقب «ضابط البلاط» كانت مهمتهم التجول في قصر «أنيتشكوف» في زيهم الرسمي، وحضور المآدب والحفلات في كل مناسبة، ومراقصة سيدات البلاط وزوجات رجال الحاشية، فلا غرابة إذن في أن يسخر هؤلاء الفتيان من الشاعر الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا حينما ظهر في البلاط بلباسه الضيق المقصب وسيفه الذي يجرُّه على الأرض، وكتب الشاعر يومئذ في مذكراته يقول:

- لقد انقضت علي ثلاثة أيام وأنا ضابط في البلاط.. إن هذه الوظيفة لا تليق بسنِّي، ولكن ما العمل إذا كان القيصر يريد أن يشاهد «ناتاليا» وهي ترقص في قصر «أنتيشكوف»؟

***

وضاق الشاعر ذرعًا بحياة البلاط، فقدَّم استقالته من منصبه فرفض القيصر قبولها.. كل هذا و«ناتاليا» لا تزال ترقص وتهوى حفلات القصر، ثم أخذت الديون تتراكم على بوشكين ودخل الشاعر التحرري في صراع مقنَّع قاس مع بعض الوزراء وذوي النفوذ.. وأراد أخيرًا أن يرحل إلى الريف طلبًا للراحة والهدوء حتى يستطيع أن ينقطع بعض الوقت للكتابة والتأليف، فرفضت «ناتاليا» أن ترافقه ومكثت في موسكو!

وفي الريف، استطاع بوشكين أن يضيف إلى سلسلة روائعه السابقة عددًا من أهم مؤلفاته التي جددت الأدب الروسي، فكتب وقتئذ: «أوجين أونيجين Eugéne Onéguine»، و«الفارس البرونزي»، و«الديك الذهبي»، و«السيدة البستونية»، وغير

ذلك.. وفي عام 1836، أتم كتابة روايته الأخيرة «ابنة القائد» التي بلغت قمة المجد الأدبي.. كل هذا و«ناتاليا» لا زالت تلهو وترقص!

***

وكانت «ناتاليا» قد تعرَّفت في ذلك الوقت بشاب فرنسي في الرابعة والعشرين من عمره يدعى «جورج دانتس» قدم إلى العاصمة الروسية هاربًا من فرنسا إثر ثورة عام 1830، وواتاه الحظ في بطرسبرج فألحق بالحرس القيصري، إذ كان شابًا وسيم الطلعة رشيق الحركات يجيد فنون الرقص والحديث.. ولم يمض وقت طويل حتى تعرف «دانتس» إلى البارون «هيكرن» السفير الهولندي في بطرسبرج، وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الود والصداقة. ولما كان السفير عقيمًا لم ينجب أولادًا، فقد تبنى «دانتس» ومنحه لقب أسرته فصار يدعى «البارون دانتس هيكرن» والواقع أن السفير كان رجلًا غامضًا ملتويًا بارد الأعصاب لا يضمر للشاعر بوشكين أية مودة.

وما كاد بصر «دانتس» يقع على «ناتاليا» حتى أعجب بها من أول نظرة، وراح يراقصها ويتودد إليها ويلاحقها في قحة وإلحاح، فلم تمض أيام حتى أخذ خصوم بوشكين ينشرون الشائعات حول زوجة الشاعر والضابط الفرنسي الوسيم.

ولم يكن خافيًا على البارون السفير أن ابنه بالتبني قد هام حبًا بزوجة الشاعر فعزم على أن يخلصها له بأي ثمن، ولكن «ناتاليا» قاومت وجاءت الشائعات تترى إلى أسماع بوشكين.. وتتابعت الرسائل الغفل من التوقيع تشير إلى زوجته بأصبع الاتهام، فثارت أعصاب الشاعر الأديب الذي كان يحب زوجته حبًا جمًا، ويغار على سمعتها من النسيم، وأظلمت الدنيا في وجهه وأخذ يفكر مهمومًا في وسيلة يدافع بها عن شرفه، وأية وسيلة يمكن أن تنقذ هذا الشريف غير الدم؟

وخشى السفير مغبَّة الأمر.. فأسرع بتزويج «دانتس» من شقيقة «ناتاليا» تغطية للفضيحة المتوقعة، غير أن هذا الزواج لم يهدئ من ثائرة بوشكين.

***

وفي اليوم الرابع من شهر نوفمبر عام 1836، تلقى الشاعر رسالة بالبريد غفلًا من التوقيع، تعمد مرسلها إثارة شعور بوشكين وإضرام نار الغيرة في قلبه، وقد جاء بالرسالة ما يلي:

«اجتمع القواد والفرسان العظام لفرقة حملة القرون السامية برياسة رئيس الفرقة السيد ناريشكين وقرروا بالإجماع انتخاب ألكسندر بوشكين نائبًا لرئيس فرقة حملة القرون، ومؤرخًا لتلك الفرقة».

و«ناريشكين» هذا الذي جاء ذكره في الرسالة كان زوجًا لمحظية القيصر ألكسندر الأول، وقد أراد مرسلو الرسالة من ذكره بتلك الطريقة الساخرة أن يعرضوا بشرف الشاعر، والتلميح إلى أن زوجته «ناتاليا» إن هي إلا محظية لنقولا الأول، كما كانت زوجة ناريشكين محظية لألكسندر الأول!

وكان بوشكين مقتنعًا تمام الاقتناع بأن البارون هيكرن هو الذي أوحى بإرسال هذه الرسالة الشائنة.. ولذا عقد العزم على دعوة السفير نفسه إلى المبارزة، غير أنه أدرك أن مركز هيكرن الدبلوماسي وكبر سنه يتنافيان مع شروط المبارزة، ولكن ما العمل؟.. أيتحدى «دانتس»؟.. كلا، فإن هذا الضابط الفرنسي الرقيع المطرود سوف ينتحل شتى الأعذار لكي يتحاشى القتال!

واهتدى بوشكين في النهاية إلى وسيلة تحقق له أغراضه، فجلس إلى مكتبه يحرر إلى السفير خطابًا مملوءًا بالشتائم والإهانات المقذعة التي لا يمكن أن يرد عليها وأن تغسل إلا بالدم، وقد كتب الشاعر في رسالته يقول:

«سيدي البارون، فلتسمح لي أن أستعرض ما حدث، إنني أعلم بسلوك ابنك منذ مدة طويلة، وقد اكتفيت بدور المراقب، مستعدًا للتدخل في الوقت الذي أعتبره مناسبًا، ثم وقع حادث ساعد لحسن الحظ على أن يأتي بالحل للمشكلة، والواقع، أن هذا الحادث لو كان قد وقع في أي وقت آخر لاعتبرته حادثًا مشئومًا، وقد وصلتني عدة رسائل خالية من التوقيع، فأدركت أن الفرصة قد أصبحت سانحة، وأنت بالطبع تعرف بقية ما حدث، ولقد أجبرت ابنك على أن يمثل دورًا يدعو للرثاء، حتى أن زوجتي لم تتمالك نفسها من كثرة الضحك بعد أن أدهشها جبنه ووضاعته!

«وإنني مضطر إلى الاعتراف يا سيدي البارون، بأن دورك في هذا الموضوع لم يكن دورًا لائقًا.. فإنك، وأنت تمثِّل أحد الرؤوس المتوجة، قد تصرفت من الوجهة الأبوية تصرف القواد للسيد الصغير: ابنك!.. ويبدو أن كل تصرفاته الملأى بالأخطاء كانت بإيعاز منك، فأنت بلا شك الذي أمليته ما كتب من أشياء تدعو للأسف. وأنت، مثل أية امرأة فاجرة عجوز، الذي كنت تتربص في كل ركن مظلم لزوجتي لتحدثها عن

غرام صبيك، وحينما أصيب بالجدري واضطر إلى ملازمة منزله، قلت إنه كان يموت بسبب حبه لها، وقلت لها: ردي إليَّ ولدي!.

«ويمكن أن تفهم من هذا جيدًا، أنني لا يمكن أن أسمح لأسرتي بعد كل ما حدث بأن تكون لها أدنى صلة بأسرتك. ولقد كان على أساس هذا الشرط أن وافقت على إغفال هذا الموضوع القذر، حتى لا ألوِّث شرفك في عين بلاطنا وبلاط بلادك، كما كان في وسعي وفي نيتي أن أفعل، ولا يمكن أن أسمح له بأن يخدش مسامعها بنكات ثكنات الحرس، وبأن يمثل أمامها دور العاشق المخلص التعس، في حين أنه ليس إلا سافلًا وضيعًا جبانًا. ولهذا أجدني مضطرًا إلى أن أتوجَّه إليك، لأطلب منك أن تضع حدًا لكل هذه المناورات، إذا كنت تريد أن تتحاشى وقوع فضيحة أؤكد لك أنني لن أتراجع عن إثارتها في هذه المرة، وإنه ليشرفني، يا سيدي البارون، أن أكون خادمك الخاضع المطيع، ألكسندر بوشكين».

وقبل البارون «هيكرن» التحدي، وأناب عنه ابنه بالتبني «جورج دانتس» لمبارزة بوشكين في مدة أربع وعشرين ساعة.

***

وتم الاتفاق على أن تكون المبارزة في السابع والعشرين من شهر يناير، عام 1837م، وكان بوشكين هادئًا قبيل المبارزة، فأخذ يراجع بعض الأعمال المتعلقة بمجلته الأدبية كأن شيئًا لم يحدث، وأجاب على عدة رسائل وردت إليه. وفي الساعة المحددة، أقلت زحافتان بوشكين وشاهده «دانزاس» - ودانتس وشاهده - وتوجهت الزحافتان إلى ضواحي بطرسبرج، حيث وقفتا عند مكان يدعى بالنهر الأسود، وهناك هبط الأربعة، وأخذوا يسوون بأقدامهم المساحة المغطاة بالجليد الكثيف، ويقيسون المسافة التي سوف يطلق منها كل من بوكين ودانتس النار على صاحبه.

وألقى الشاهدان بمعطفيهما على الجليد، ليحدد كل منهما لموكله الحاجز المعين لإطلاق النار.. ثم بدأ كل من المتبارزين يحشو مسدسه. ونادى الشاعر قائلًا: «ألم تنتهيا بعد؟..».. لقد كان نافذ الصبر لأن الاستعداد كان يثير أعصابه، وقد أوشكت أصابع يده أن تتجمد من شدة البرد.

وأخيرًا، نادى عليه شاهده دانزاس طالبًا منه أن يتقدم، وأوقفه على بعد خمس خطوات من معطفه.

ورفع بوشكين بصره لأول مرة إلى الرجل الواقف أمامه.. لقد تمكن أخيرًا من أن يجيء به ليضعه على بعد عشرين خطوة من مسدسه!.. ونظر بوشكين إلى «دانزاس» يستحثه على الإسراع بإعطاء إشارة البدء، ثم رآه وهو يشير بقبعته على مهل، فسار نحو الحاجز وهو يرفع مسدسه. وفجأة، سمع صوت طلق ناري، وفي الوقت نفسه أحس بوشكين بأن شيئًا قد صدمه في جنبه، كما لو كان ضربة يد شديدة، ومادت الأرض تحت قدمي الشاعر، وأحس بأنه يسقط في هوة سحيقة مظلمة.

وأسرع إليه «دانزاس»، وفجأة ثاب بوشكين إلى رشده، وكان قد خيل إليه بأن قرونًا طويلة قد مرت عليه منذ سقطته، وحاول جاهدًا أن يرفع جسمه من على الأرض مستندًا إلى يده اليسرى، ثم قال لدانزاس: «انتظر، فلا يزال في وسعي أن أصوب طلقتي!».

فأعطاه «دانزاس» مسدسًا آخر أطلقه الشاعر على غريمه، وقال وهو يراه يسقط بدوره:

- هل قتلته؟

فأجابه «دانزاس» بقوله:

- كلا، ولكنك جرحته في صدره.

فتمتم بوشكين يقول في إعياء:

- هذا شيء غريب، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته في نفسي السرور.. ولكني أشعر الآن بأن ذلك لم يتحقق!.. وعلى أية حال، فالأمر لدي سواء، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء!

***

وكان الدم الذي انساب من جرح الشاعر قد كون على الثلج بركة صغيرة حمراء يتصاعد منها البخار، فنقل في رفق على زحافة إلى بيته حيث كانت زوجته «ناتاليا» تطرز في انتظاره بغرفة الجلوس، فما كادت تراه محمولًا ومضرجًا بدمائه حتى سقطت فاقدة الوعي عند قدمي «دانزاس»!

وعانى بوشكين آلامًا مبرحة في ساعاته الأخيرة، غير أن الشاعر العظيم كان يتحملها في رجولة وهدوء، وظل القيصر نيقولا يضايقه حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، إذ

أرسل إليه خطابًا يطلب فيه أن يقوم بطقوس الكنيسة الأرثوذكسية، وإلا فإنه سوف يحرمه من معاش زوجته وأطفاله!

وقبل أن يلفظ بوشكين نفسه الأخير، طلب العفو من أصدقائه الذين يحيطون به ثم طبع على جبين زوجته قبلة الوداع، وودع أطفاله، وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام 1837، أسدل الستار على حياة العبقري الخالد..

ولما بلغ خبر وفاته القيصر نيقولا الأول، قال شامتًا:

- لقد كنت أتوقع له هذه النهاية!

وظل جثمان الكاتب الكبير معروضًا في بيته ثلاثة أيام، واحتشد عند مدخل البيت جمع غفير من الناس يربو عددهم على مائتي ألف شخص، كلهم يريدون أن يلقوا على جثمان الشاعر نظرة الوداع الأخيرة.

وحينما أدرك القيصر أن دفن جثمان بوشكين في بطرسبرج أو في موسكو سوف ينجم عنه كثير من المتاعب، أصدر أمره بنقل جثمانه سرًا إلى دير «سفياتوجورسكي» بالقرب من قرية ميخايلوفسك.

وفي صباح اليوم الأول من فبراير سنة 1837، شاهد جماعة من الفلاحين في ضواحي بطرسبرج، زحافة تحمل تابوتًا تجرها جياد أربعة، وهي تجد السير تجاه الجنوب، وتعدو في إثرها جماعة من الحرس المسلح!

ليو تولستوي

«الكاتب الروسي المفكر»

«الفلاحون.. الفلاحون.. هم الذين يجب أن تنظروا إليهم، وهم يموتون!».

ثم استغرق تولستوي في غيبوبة طويلة، وبعد أن تنبه قليلًا جلس في فراشه وأخذت ابنته ألكسندرا، وابنه سرج يصلحان له الوسائد تحت رأسه، وسألاه:

- هل تريد شيئًا؟.

فقال لهما بصوت فيه بقية من قوة، وبعبارة مفهومة:

- لا.. لا.. أريد فقط أن أنبهكم إلى أنه يوجد في العالم خلائق كثيرة غير ليو تولستوي.. إنكم لا تنظرون إلا إلى ليو تولستوي..!

وكانت هذه كلماته الأخيرة، وهو يعاني سكرات الموت بعد أن عانى أيامًا آلام الحمى التي انتباته في رحلته إلى «شاموردينو» سنة 1910، وهو في الرابعة والثمانين من العمر. وكان قد هجر بيته هربًا من زوجته العجوز التي اشتد الخلاف بينها وبينه في أواخر حياته، فأراد أن يعيش بعيدًا عنها في هدوء. فنهض مبكرًا وهي نائمة دون

أن يشعرها بعزمه على السفر، ومشى في سكون إلى حجرة ابنته ألكسندرا، ودق الباب، فاستيقظت، فرأت والدها واقفًا أمامها، يرتدي ملابسه، وفي قدميه حذاء غليظ، فقال لها:

- أنا ذاهب.. أنا ذاهب نهائيًا يا ألكسندرا.. ساعديني في إعداد حاجاتي!..

فأسرعت ابنته إلى مساعدته، ولم تكن وحدها.. كان معها طبيبه الدكتور دوشان ماكوفنسلي، وابنة عمها فاريا. وكانوا يعملون في صمت، لا يتبادلون غير كلمات متقطعة، وبصوت خافت جدًا.

وتولت ألكسندرا ترتيب أدواته ومخطوطاته وكتبه، وتولى الدكتور دوشان إعداد الأدوية، وعنيت فاريا بالثياب والأمتعة، وقد أشار تولستوي إلى المخطوطات، وقال لابنته: «احتفظي بها جيدًا»، فسألته: «والمذكرات؟..».

فأجاب: «أخذتها معي»!.

وكانت حركاته هادئة.. ولكن نبرات صوته كانت تنم عن تأثره واضطرابه.. والتفت إلى ألكسندرا وقال لها:

- يجب أن تبقى هنا، ساشا.. وبعد بضعة أيام سأبعث في طلبك لكي توافيني في المكان الذي أكون قد اخترته للإقامة فيه.. قد أذهب أولًا إلى شاموردينو، عند أختي ماشا.

شكت الأسرة في أنه ذهب إلى شاموردينو، فطلبت زوجته من أحد أفراد أسرته أن يلحق به إلى هناك، ويحاول أن يعيده إلى البيت.

في 28 أكتوبر وصل تولستوي إلى دير أوبتينو.. ووصف رحلته بهذه العبارات: «نمت في منتصف الساعة الثانية عشرة.. غفوت إلى ما بعد الثانية. ولما استيقظت، سمعت - مثل الليالي السابقة - أصوات أبواب تفتح ووقع أقدام.. في الليالي السابقة لم أنظر إلى ناحية الباب، لكنني في هذه المرة نظرت.. فرأيت نورًا في حجرة مكتبي، وخيل إليَّ أن يدًا تعبث بأوراقي.. إنها زوجتي تبحث عن شيء.. ربما كانت تقرأ شيئًا.. في الليلة الأخيرة - كانت قد ألحت علي بألا أقفل بابي بالمفتاح.. إنها تترك بابي غرفتها وغرفتي مفتوحين لكي تراقب حركاتي كلها.

«إنها تريد أن تعرف كل حركة وكل كلمة تصدر مني.. سمعت أصواتًا أخرى..

الباب يفتح.. إنها تمر.. هذا يثير في نفسي الاشمئزاز والاستنكار.. حاولت أن أنام مرة أخرى، ولكن بدون جدوى.. قضيت ساعة كاملة أتقلب يمينًا ويسارًا.. ثم أشعلت الشمعة وجلست.. فتح الباب ودخلت زوجتي صوفيا اندريفنا بحجة السؤال عن صحتي، وأظهرت دهشتها لرؤية الشمعة مضاءة.. الاستنكار والاشمئزاز يبلغان الذروة في نفسي، أكاد أختنق.. وصل نبضي إلى 97.

«لا أستطيع البقاء ممددًا.. وفجأة، قررت نهائيًا أن أذهب.. كتبت لها رسالة.. وبدأت أعد حوائجي الضرورية، لكي أهرب في أسرع وقت.. أيقظت ساشا.. ثم دوشان، فساعداني في إعداد الحوائج، إنني أرتعش خوفًا من أن ترانا، من أن تثير مناقشة.. من أن تنتابها نوبة عصبية!».

ثم واصل وصف هربه.. كيف خرج.. خوفه من المطاردة.. انتظاره في المحطة وهو يرتعد.. وأخيرًا كيف تحرك القطار فهدأت مخاوفه.. والسفر بالدرجة الثالثة، المزدحمة بجماعة من عامة الشعب.. ثم الوصول إلى أوبتينو.

أما ألكسندرا، فقد تركت والدتها في رعاية الأسرة، وغادرت البيت للحاق بأبيها في شاموردينو، وصحبتها فاريا ابنة عمها في هذه الرحلة.

***

وقد وصفت ألكسندرا هذه الرحلة، وساعات والدها الأخيرة، فقالت:

- كانت عمتي ماري (ماشا) تقيم في شاموردينو مع ابنتها ليزا.. فاستقبلنا أبي بترحاب ودي وإدراك لحالته النفسية، إنه يشعر بالراحة والهدوء مع أخته وابنتها.. ولم تكن الصدفة وحدها هي التي جعلته في تلك اللحظات الدقيقة من حياته، يفكر في الالتجاء إلى شخص تجمعه به رابطة الدم.

كان أبي معجبًا دائمًا بقوانين الأديرة والجو الهادئ الذي يسود فيها وقد تحدث طويلًا إلى رهبان أوبتينو وراهبات شاموردينو.

كان يود البقاء في شاموردينو.. وقد عثر هناك على بيت منعزل عرض عليه بإيجار لا يزيد على ثلاثة روبلات في الشهر.. وكان يرغب في استئجاره لكن الأخبار والرسائل التي حملتها إليه معي أقلقته وأزعجته.

كنت أجلس مع عمتي ماشا في حجرتها بالدير.. وأتحدث إليها في ذلك الجو الدافئ. وكان أبي يصغي إلى حديثنا، ولكنه لا يشترك فيه.. وفجأة رأيت يديه تتقلصان على مساند المقعد، ثم نهض واقفًا، وأسرع إلى الحجرة المجاورة بخطوات ثابتة، وأدركت أنه قد اتخذ قرارًا ما، بعد أن فكر فيه طويلًا.. وبعد لحظة، ناداني فذهبت إليه، ولما دخلت قال لي:

- ابعثي بهذه الرسالة إلى والدتك.

وكان نص الرسالة كما يلي:

- أمضيت يومين في شاموردينو وفي أوبتينو. وسأذهب إلى مكان أبعد منهما.. ولا أذكر لك ذلك المكان لأنني أعتقد أن الفراق لابد منه، بالنسبة إليك وبالنسبة إلي.. لا تظني أنني هربت لأنني لا أحبك: فأنا أحبك وفي آن واحد أرثي لحالك بكل مشاعري.. غير أنه لا يسعني أن أفعل غير ما فعلت. فليكن الله في عونك يا عزيزتي. إن الحياة ليست لعبة يلهو بها الإنسان، ولذا فإنه لا يحق لنا أن نتخلص منها حسب أهوائنا، ولا يقل حماقة عن هذا أن نقيس الحياة بمقياس الزمن، فالشهور القليلة الباقية لنا من هذه الحياة قد تفوق في أهميتها جميع السنين الماضية. فيجب إذن أن نعيشها وفاقًا لما تقتضيه الظروف.

«وفي اليوم التالي، عند الصباح، استأنفنا السير. ولم يتمكن أبي من أن يودع أخته، بل لم ينتظر، وحول العربة الثانية التي طلبناها لنقل أمتعتنا إلى محطة كوزلسك.. فقد كان عصبيًا، متسرعًا، مثل اليوم الذي حزمنا فيه الأمتعة بالبيت.

«ركبنا القطار في اللحظة الأخيرة، بدون أن نعلم إلى أين نحن ذاهبون، وتمكنا، فاريا وأنا، من وضع الحقائب في القطار بصعوبة.

عرف الناس أبي وانتشر في عربات القطار خبر وجوده فيه، بسرعة فائقة. وأحاطنا الموظفون بمظاهر التكريم، وأعطونا حجرة خاصة. وساعدوني في إعداد كرات من الشعير لأبي، وأقاموا بالباب حراسة مشددة، ليمنعوا عنا تطفل المسافرين.

بعد الساعة الثالثة مساء، ناداني أبي: كان يرتعش.. فألقيت عليه غطاء، وأخذت درجة حرارته ترتفع.. كان محمومًا، فشعرت بإعياء شديد، واضطررت أن أجلس، وتولاني العناء واليأس.

أدرك أبي حالة الذعر التي استولت عليَّ.. فبحث عن يدي وضمها بين يديه. وقال:

- احتفظي بشجاعتك، ساشا.. فكل شيء على ما يرام.. كل شيء على أحسن ما يرام!

عندما وقف القطار في أول محطة، أسرعت وجئت بماء ساخن. ونصحني الدكتور دوشان، بأن أقدم لأبي الشاي الساخن ممزوجًا بالنبيذ، ففعلت.. ولكن الرعشة بقيت كما كانت، والحرارة ظلت في صعود.

وجاء وقت أدركنا فيه الحقيقة الواقعة، وهي أنه لم يعد بالإمكان مواصلة السفر، ونحن على تلك الحالة. وفي الساعة الثامنة مساء، وصل القطار إلى محطة تشيع فيها الأنوار، اسمها استابوفو.. فقررنا أن ننزل هناك.

ذهب الدكتور دوشان لمقابلة معاون المحطة، وطلب منه أن يجد لنا مأوى لليل. ولم يكن في البلدة الصغيرة فنادق.. فقدم لنا معاون المحطة بيته لننزل فيه.

اجتزنا المحطة وأنا أسند أبي، بين صفين من الناس الذين دفعهم حب الاستطلاع إلى الإحاطة بنا.. ولما عرفوا أبي حيوه برفع قبعاتهم، وكان يمشي بعناء وقد خارت قواه، ويحاول بجهد كبير أن يرد على تحيتهم برفع يده إلى قبعته.

وما كدنا نخلع عنه ثيابه ونمدده في السرير، حتى غاب عن الوعي. وانتابته رعشة شديدة عمت الناحية اليسرى من جسمه، من وجهه إلى ذراعيه وقدميه. وبدا لنا أن النهاية تقترب، فأرسلنا في طلب طبيب القرية، فجاء.. وحقن أبي بمادة مقوية للقلب.

وفي 2 نوفمبر، عند الساعات الأولى من النهار، بدأت الحرارة تصعد بسرعة، وجعل أبي يسعل ويبصق دمًا.. إن المرض يمزق الرئتين، فأرسلت برقية إلى أخي سرج هذا نصها: «الحالة خطرة.. أردت أن أخبرك أنت وثانيا.. وأخشى قدوم الآخرين»..

كنت فعلًا أخشى قدوم والدتي!

فإن دوشان تلقى في ذلك اليوم برقية تفيد بأن والدتي ذهبت إلى تولا، وإنها من هناك طلبت قطارًا خاصًا في الساعة الرابعة بعد الظهر، وسافرت به إلى استابوفو مع إخوتي وأحد الأطباء وإحدى الممرضات.

وذعرت من الخوف!

كيف السبيل إلى حماية أبي؟

هل بلغ عدم التبصر بأفراد الأسرة كلهم حدا أصبحوا معه غير قادرين على إدراك الحقائق؟

ولكن، لحسن الحظ، أسرع أخي سرج وسبقهم جميعًا.. فقد أدرك هو أن أية صدمة يلاقيها أبي ستكون قاضية عليه، لأن قلبه أصبح في حالة هبوط مخيف.

وفي نفس اليوم، أرسل سرج إلى إخوتنا برقية يقول فيها أن حالة أبي في تحسن، وإن كان القلب لا يزال ضعيفًا، وأضاف أن مجيء والدتي سيكون له لدى أبي وقع قاتل!

ولم يكن أبي يعلم، في تلك اللحظات العصيبة، أن خبر مرضه قد انتشر في كل مكان، وطاف حول العالم، وأن الأسرة كلها تجتمع في استابوفو..

فقد عسكر حول المحطة جيش من المصورين.. ووقف الصحفيون يرقبون، ويتسقطون الأخبار، ويتلقفون كل كلمة تخرج من بيت معاون المحطة الصغير.

أما نحن، فكنا نحيط بتولستوي ليلًا ونهارًا، ولا نسمع ولا نتتبع غير دقات قلبه وسير تنفسه.

تناوب في نفوسنا الأمل واليأس.. تهبط الحرارة فيعاودنا الأمل، وترتفع الحرارة فيتولانا اليأس من جديد.. الرئتان أصبحتا مصابتين، والقلب يخفق بصعوبة.. وحتى هبوط الحرارة أصبح دليلًا على أن الجسم لم يعد قادرًا على المقاومة.. وبعد أن كان التنفس سريعًا، أصبح متقطعًا.

جعلنا نصلح وضع الوسائد تحت رأسه فسمعناه يتمتم: «الفلاحون الفلاحون.. هم الذين يجب أن تنظروا إليهم وهم يموتون!».

مر يوم 4 نوفمبر وأبي في شبه غيبوبة.. كان يهذي.. يحاول أن يقول لنا شيئًا.. ثم يفقد كل حركة، كانت أصابعه وحدها، أصابعه التي لم يبق على عظامها غير الجلد، تتحرك باستمرار على الغطاء، أما نظره، من خلال عينيه الجاحظتين، فقد خيل إلينا أنه متجه إلى داخل نفسه لا إلى ما يحيط به، كأنه غارق في تأملات لا نستطيع إدراكها لأنها مستعصية.

وفجأة، تمتم أيضًا: «البحث.. البحث.. دائمًا البحث..».

ووصل أطباء من موسكو.. ولكن كل أمل كان قد اضمحل.

في 6 نوفمبر، جعل يلاطف جميع الذين كانوا حوله.

يقترب منه الدكتور دوشان، فيقول: «عزيزي دوشان.. عزيزي دوشان..».

نصلح فراشه، فأشعر بأن يده تبحث عن يدي.. ظننت مرة أنه يريد شيئًا يستند عليه، لكنه ضغط فقط على يدي مرتين، فغمرت يده بالقبلات، وتجالدت كي لا تنهمر دموعي.

في اليوم ذاته، كنت جالسة مع ثانيا على طرف سريره. وفجأة، بحركة عنيفة رفع رأسه وجلس.. فاقتربت وسألته إذا كان يريد أن نصلح له الوسائد أو يريد شيئًا.. لكنه قال بصوت فيه بقية من قوة وبعبارات مفهومة:

«لا.. لا.. أريد فقط أن أنبهكم إلى أنه يوجد في العالم خلائق كثيرة غير ليو تولستوي.. إنكم لا تنظرون إلا إلى ليو..».

تلك كانت كلماته الأخيرة، الموجهة إليَّ وإلى ثانيا.

وفي المساء، تفاقمت حالته.. أعطوه أوكسجينًا ليساعده على التنفس وحقنوه بالكافور.. فهدأ.. ونادى سرج:

- سرج.. الحقيقة.. أحب كثيرًا.. إنهم..

وتراخت قواه.. فنام.. وتحسن تنفسه، وخيل إلينا أن الخطر قد ابتعد.. وذهب البعض إلى فراشهم.. وبقي المكلفون بالسهر ليلًا.

وفي منتصف الليل، استيقظ الجميع..

كان أبي يلفظ أنفاسه الأخيرة!.